الى ماذا نحن صائرون وكيف نتلافى امرنا (١)

ايها السادة والسيدات

على الله اني استعفيت من القيام في هذا الموقف امامكم فلم أُعف . وحاولت جهدي في ان اتخلّى عنهُ لغيري ممن يتشوّف البادي والحاضر للإصغاء اليهِ فلم انل بغيتي . حاولت ان اتخلّى لرب الخطابة والمقدّم فيها العلامة الدكتور وليم فانديك ويا حبذا لو تمّ ما حاولتهُ فانهُ لو قام مقامي هذا الفاضل على ما اشتهيتُ وسمعت لكنتم تسمعون منهُ الآن غير ما تسمعون وتمرُّ بكم الساعات لا الدقائق وانتم صاغون ومتجبون بل كنتم تودّون لو يمُدُّ الليلُ ساعات من النهار وانتم باسمون ومبتهجون لكن صدق شاعرنا المشهور حيث يقول

ما كل ما يتمنى المرء يدركهُ تجري الرياح بما لا تشتهي السفنُ

فقد جرت الرياح بسفينة هذا الواقف امامكم وهو مبلبل البال مضطرب الخواطر يخشى ان لا يحسن ادارة دفتها فلا تصل بهِ الى حيث يريد وان هو احسن القصد وافرغ سعيهُ في سبيل ذلك غاية المستطاع ومنتهى الجهد . على اني اخلصت النصح في ان يكون غيري الخطيب ممن ترضونهُ ثم لما لم يسمع نصحي ولا سوعدتُ على اخلاصي بذلتُ غاية جهدي في ان آتي باحسن ما يؤتى بهِ من مثلي فان جاء في ما سأقولهُ شيءٌ يشفع بي عندكم فذلك تفضل فيكم وجزاء لي على اخلاصي والاَّ فاللوم على من اوقفوني هذا الموقف لا عليَّ لاني نصحت اولاً واجتهدت ثانياً وبذلت في هذا وذاك غاية ما في وسعي ولا تكلف نفسٌ فوق ما في وسعها

موضوعي ايها السادة والسيدات " الى ماذا نحن صائرون " وهو موضوع بعيد المسافات متوعر المسالك فان انا اخذت في جميع طرقهِ واطفتُ بهِ من جميع جهاتهِ اعوزني الوقت وحملكم من المشقات ما لا تطيقون وهب ان فسح لي في الوقت فمن اين لكم الصبر اذا سلكت بكم في جميع متعرجاتهِ وطفت معكم في جميع معالمهِ ومشاهدهِ بل ارى الوقت لا يؤذن لي بالمقدّمات التي تقدّم عادة بين يدي الموضوع ولا بالتمهيدات التي تمهّدُ قبل ان تنفض مسالكهُ ويخاض في محاوضهِ فاعذروني اذن في اقتضاب الكلام اقتضاباً واجتداء الغرض منهُ ابتداءً فانزل . انظروا الى جبالنا تعلوا الى اين نحن صائرون . هذه جبال لبنان من اوطأ شمالاً الى آخرها جنوباً جميع اعاليها جرداء ترعاء يسلك فيها السالك ساعات لا يرى شجرةً ترمي ظلاً او تمسك تربةً فاذا وقعت عليها العين من بعيد لا تستقرُّ على ما كان ينبغي ان تستقرَّ عليهِ

(١) خطابة كتبت لتتلى في جمعية مهذب الشبيبة السورية

من انيق خضرة تسرّ العيون بجمالها او غابات ادواح رائعة تسع الصدور لا تساعها وتستثمر القلوب والنفوس اعظاماً لعظمتها وهيبةً واجلالاً لطيبتها وجلالها . نعم لو كانت كما ينبغي ان تكون لا على ما هي عليهِ الآن لكانت احسن بقاع الله ماء وهواء رحماً وجلالاً ولكانت جبال سوريا على شهرتها ليست الاَّ وصيفةً من وصائفها او امة من امائها . بل لو كانت كما ينبغي ان تكون لاعتدلت فوق اعتدالها فصولنا فكان صيفنا اعلّ هواء والطف حرًّا واقلّ جفافاً واطرد شتاؤنا لكان اكثر مطراً وجاء الباكر منهُ والمتأخر في اوانهما معتدلاً لا طوفاناً يجرف التربة جرفاً ويخرّب السواحل تخريباً ولا رذاذاً غثًّا لا ينقع صدأً ولا يُروي لارض غليلاً . وليس الحال في بقية جبال سوريَّة وتلالها الأ على ما وصفنا بهِ جبال لبنان فانَّ اكثرها جرداء قاحلة بعدان كانت غاباً واحداً من ادواح الاشجار على اختلاف اجناسها وانواعها

والمترتب على هذا فضلاً عما ذكرنا من اختلال فصولنا وقلة امطارنا وعدم اطرادها شتاء وربيعاً أنَّ فنيت اخشاب البناء وقلَّ الوقود في البلاد واعوز وجدانهُ في المدن والقرى الكبيرة وارتفعت اسعار الفحم فيها

من اين ما نراهُ من مستودعات الحطب في جوار ميناء الخضر أمين غابات لبنان هو ام من حراج صنين والشعراء ؟ ولا يبعد بعد قليل ان ترى مثل هذه المستودعات او ما هو من بابها في دمشق وغيرها من مدن الداخلية كما نراها اليوم في اكثر مدن السواحل

ولو لم يكن الاَّ هذه المستودعات لكان الامر لانَّ ما فيها يردنا من بلاد عثمانية وفي سفن على الغالب عثمانية ولكن انظروا الى طرق لبنان المزدحمة بدواب النقل واخبروني ماذا تحمل هذه ؟ انها تحمل احجاراً سوداً مربعة الشكل يقال لها فحم حجري يردنا من انكلترا او فرنسا او بلجكا وهي بلاد اجنبيَّة وفي بواخر اجنبيَّة ايضاً ليوقد في معامل بيروت ولبنان او ليوقد في مواقد حديديَّة اجنبيَّة للدفء شتاء في كثير من بيوت بيروت وكثير من بيوت لبنان الكبيرة . بل هنالك اكثر مما ذكرنا . ادخلوا البيوت في بيروت وفي كثير غيرها من المدن والقرى الكبيرة وفتشوا في مطابخها واخبرونا ما هو نوع وقود هذه المطابخ انكم قلما تدخلون بيتاً الاَّ وترون وقودهُ البترول من باطوم او الولايات المتحدة . فلماذا استبدلتم يا اصحاب البيوت مواقد مطابخكم بطباخات البترول ؟ أليس لان جبال لبنان وسورية اصبحت قرعاء جرداء فاعوزتا الحطب والفحم واضطررتا اضطراراً الى الطبخ والغسل على البترول . هذه نظرة نظرناها الى جبالنا فقولوا لي بعدها يا من ترون معي ما ارى " الى ماذا نحن صائرون ؟ " واسفاهُ واسفاهُ اننا صائرون الى الخراب والافلاس غداً او بعد غد

دعونا من هذه النظرة ايها السادة وانظروا نظرة اخرى الى حالة زراعتنا . سهولنا ومزارعنا اكثرها بور والمزروع منها وهو ما قارب المدن والضياع لا يكاد يبلغ ربع الاراضين. واما ما يُعد فتروك للشوك والحسك . ويا ليت انَّ في البلاد ماشية من الغنم والبقر وسائمة الخيل تتكاثر وتنمو على هذه الارض المتروكة بورًا فكنا اذن نستوفي شيئًا من خصبها الطبيعي بصورة الماشية ولكن الحال ليست كذلك فانَّ اغنامنا قليلة جدًّا وكذلك بقية الماشية حتى تضطرَّ اغلب مدننا وضياعنا الكبيرة ان تجلب اللحوم من خارج سوريَّة وقد بلغ ثمن اقة اللحم في مدينتنا بيروت في غضون هذه السنة نحوًا من خمسة عشر غرشًا او يزيد وهو ثمن لو بلغتهُ اقة اللحم في لندن او باريس في عمرة الشتاء لضجَّ اهلهما من مجاوزته المعتاد

انظروا الى انهارنا واعظمها العاصي شمالاً والاردن جنوبًا والبطاني ما بينهما فهذه الانهر الكثيرة المياه السريعة المجرى متروكة عملاً لا تسقي ارضًا ولا تدير آلات الاَّ بعض مطاحن لطحن القمح . ولو انَّ هذه الانهار يُنتفعُ بمياهها على ما ينبغي لكانت البلاد على بعض ضفافها تفوق بلاد النيل خصبًا وكثرة حاصلات ولكانت كما يقال تفيض ذهبًا وفضةً . ولقد نُقل عن استاذنا الدكتور جورج بوست انهُ قال اعطوني نهر العاصي ووادية عن جانبيهِ والاردن ووادية وانا املأ لكم سوريَّة طعامًا وكسوةً فلا يجوع رجل ولا يَعرى ولدٌ

ايها السادة سهولنا واسعة ومزارعنا خصيبة ومياهنا في بعض الجهات كثيرة ولكن اين غلاتنا ؟ اين الحبوب التي كان ينبغي ان تكون مركومة امثال التلال في مزارعنا وقرانا وتُصدَّر في سفننا من ثغورنا الى مدن اوربا وبنادرها . ام اين اقطاننا التي تملأ بيوت زارعيها وتفيض فتملأ المستودعات الكبيرة والمخازن الواسعة في مدننا فتصدرها تجارنا وترُدُّ علينا اثمانها ذهبًا وعاجًا

واسفاه ليس شيءٌ من ذلك اما القطن فاظن الشبان ومن هم في اول سن الكهولة من زُرَّاعنا لا يعرفونهُ الاَّ محشيًّا في فراش احدهم او لحافهِ اما كيف يزرع ويجنى ويحلج ويُغزل ثم يحاك خامًا كان يُضرب المثل بمتانتهِ فذلك مما يحسبونهُ عن آبائهم او نقلاً عن المتقدمين منَّا فيما بينهم

واما الحبوب فيسوؤني ان اقول على مسمع منكم ان كثيرًا من مخازن الحنطة في مدينتنا ملآن منها لكن من غير سهول حمص وحماه والشام وحوران ولو ان الحنطة والدقيق يردان الينا من اقاليا فقط لهان الامر لان اقاليا بلاد عثمانية وقمحها يستهلك في ثغر عثماني ولكن سلوا العارفين فيخبروكم ان تجار الدقيق قد يستوردونهُ من روسيا وفرنسا بل من اميركا

وانكلترا ويجدون لهُ مشترين في بيروت وغيرها من المدن البحريَّة . وان لساني ليتلعثم في حزنًا وامتعاضًا اذا ذكرت لكم ما اراهُ وترونهُ انتم كل يوم من مركبات تحمل الخبز الى كثير من البيوت من افران تجلب دقيقها من فرنسا او روسيا واحيانًا من ايطاليا وفي كل يوم يزيد عدد الموزَّع عليهم من هذه الافران عن سابقهِ

دعونا الان نلفتُ نظرنا عن حالتنا الزراعيَّة الى حالتنا الصناعيَّة . وبكل اسف اقول انها اشبه بحالتنا الزراعيَّة ان لم اقل اسوأ منها عاقبةً واسرع بنا الى الخراب والافلاس مصيرًا. ادخلوا الى بيوتنا في المدن والضياع وانظروا ماذا ترون ؟ ترون أثاثنا وادوات طعامنا وشرابنا وانواع زينتنا اغلبها ان لم اقل كلها من المصنوعات الاجنبيَّة ويا للاسف حتى الزيوت والمكبوسات من البصل والخيار واشباه ذلك ولا اقول المشروبات ترد الينا في قناني من البلاد الاجنبية ونفاخر بها لانها من صنع بلاد اجنبية . استوقفوا رجالنا وشبابنا برهةً وانظروا في ملابسهم من اسفل القدم الى قمة الراس فانكم ترون الاحذية من صناعة اجنبية والطرابيش كذلك وما بينهما من القميص الذي يباشر الجلد الى المنديل في الجيب كل ذلك من بلاد اجنبية وصناعة اجنبية . ويا للعجب ان القمصان ورُبُط الرقاب ليستخفُّ بها اذا كانت مصنوعة بايدي صناعنا ويفاخر بها لمجرَّد انها مصنوعة في لندن او في باريس واعجب من ذلك وانهُ لعجيب يستوجب البكاء ان بعضًا من شبابنا يباهون في انهم يخيطون اثوابهم في باريس او في لندن يرسلون اقدارهم الى الخاطة هناك فتأتيهم الاثواب طردًا في البوستة او مع احد الركاب لا يشعرون بسوء عاقبة ما يفعلون ولا يفطنون لفضيحة ما به يباهون

امور تضحك الجهَّال منها ويبكي من عواقبها الحكيمُ

استوقفوا المكاري استوقفوا الفلاح استوقفوا الفاعل من الفعلة الاعيادبين وانظروا ماذا قد يلبس كل واحد من هؤلاء لا ترونهُ يلبس العباءة ولا الخام البلدي ولا الديما التي يحيكها صناع بلادنا وكان يلبسها من قبلُ انما ترونهُ يلبس الصاكو المصنوعة في المانيا والديما المنسوجة على انوال منشستر والجلد المدبوغ في مدابغ فرنسا او اميركا

يا شبان بلادنا ويا رجالها لماذا لا تلبس الانسجة التي حاكها صناعنا في بلادنا على انوال دمشق وبيروت وحمص وحماه والزوق ياسيدات بلادنا لماذا لا تلبسن الحرائر المنسوجة على هذه الانوال وتباهين كما تباهي الغربيات في منسوجات نسجتها صناعنا وخاطتها الخاطة من بيننا — واني لا اخاطب الفتيات اللواتي يمكن هنَّ او ازواجهن الالوف من الجنيهات فهولاء مستثنياتٌ في كل بلاد فضلاً عن انهنَّ يُعددن على الاصابع وانما اخاطب من سواهنَّ من الجمهور الاعظم

ايها السادة والسيدات اني لاستحي من نفسي واستر عيني خجلاً اذا ذكرتُ لكم ان رئيس مدرستنا هذه واعضاء عمدتها رأوا سوء الحالة التي ذكرتها لكم وحبّبوا الينا غير مرة ان نلبس ملابس بلادنا ومنسوجات بلادنا ليقتدي بنا تلامذتنا في ذلك فيخف عن عاتق آبائهم كثير من النفقات التي احنت ظهورهم فاعرضنا عن نصحهم وادرنا اليهم ظهورنا

دعونا بعد ننظر من موقف آخر يطلّ على حالتنا الادبية من جهة الاقتصاد في النفقات فلعلّ هنالك ما يخلف في المنزى عما رأيناهُ . هؤلاء شبانا يسرحون ويمرحون فانظروا اليهم عن آخرهم انظروا الى ابناء المدارس والمتاجر والصناعات المختلفة وقولوا لي ماذا ترون . انهم على اختلافهم في درجات الغنى وعلى اختلاف في المهنة التي يتهنونها والمدرسة التي يتعلمون بها وعلى اختلافهم ايضاً في الاذواق والمواهب العقلية والادبية يكادون يتفقون في المباهاة بالانفاق على غير طائل ويتنافسون في الاسراف والتبذير — الاّ من عصمهم الله وقليل ما هم — يركبون العربات لا لانهم لا يستطيعون المشي ولا لان في ركوبها زيادة في المسرّة ويركبون الدرّاجات لا لانهم يريدون المحافظة على الوقت والاسراع في قطع المسافات الطويلة ليباشروا اشغالهم في اوقاتها باكرًا بل يركبون هذه او تلك لان في ركوبها مظهرًا من مظاهر الاسراف وايماء الى ما يذهبون اليهِ باطنًا ويبدو في عرض احاديثهم ظاهرًا من انهم لا يحفلون بالمال ولا يقدرونهُ بقدر كأن الرجولية وآسفاهُ تتطلّب الاسراف او الحكمة تأمر بتبذير المال . اسأل المستخدمين من هؤلاء الشبان ماذا ابقيتم في جيوبكم من رواتبكم الشهرية او السنوية رأس مال لكم في المستقبل يجيبوك انهم لم يبقوا شيئاً بل كثيرون منهم أبقوا عليهم ديناً يماطلون بهِ او يتدافعونهُ عنهم الى آبائهم . اسأل ابناء المدارس فيما انتقتم النفقات الكثيرة التي يئنّ آباؤكم من ثقلها وانتم تأكلون وتشربون من المدرسة وتنامون فيها فيكتون او يتخمون ويعتذرون بما لا محصّل لهُ

دعوا الشبان جانباً وانظروا الى البيوت الى الآباء والامهات واسألوا هؤلاء ماذا انفقوا في سنتهم الماضية ام اين حسابات تلك السنة ؟ ما اظنّ احدًا من المسؤولين يقدّم لك حساباً واكثرهم يتطلون بقولهم وما فائدة مسك الحسابات ابقلل ذلك من النفقات ام يزيد في الدخل ؟ وكأني ببعض المسؤولين يتململون من هذا السؤال وينظرون ذات اليمين وذات الشمال وبعضهم ينظرون بطرف خفيّ الى زوجهِ وكلنا نعلم معنى هذه النظرة . وغاية ما نجدهُ هنا ان الدخل والخرج متساويان ان لم يكن الثاني يزيد على الاول . فاذا سألت اولئك الذين تساوت نفقاتهم ودخلهم ماذا تؤمّلون في المستقبل قالوا لك الله كريم غدًا يكبر اولادنا

فينفقون علينا بدلاً مما انفقنا عليهم في تعليمهم وتهذيبهم. واما اولئك الذين تزيد نفقاتهم على دخلهم فلا نعلم ماذا يقولون ولا نعلم ايضاً جواباً نعتذر به عنهم. ايها السادة كاني اسمع احدكم يقول مالك ولنا نحن الذين قيل فيهم بعرق جبينك تأكل خبزك فانهُ يكفي امثالنا ان يزجوا العيش تزجية وحسبهم ان يتساوى دخلهم ونفقاتهم فاسأل اصحاب الاملاك الواسعة والمقتنيات الكثيرة ودعنا نحن وشأننا. صدقت ايها القائل انهُ بحسب الظاهر فلنسألكم يا اصحاب الاملاك والعقارات الذين بيننا او الغائبين عنا. ماذا وفرتم من دخلكم في السنة الماضية؟ وبأسف اجيب بلسان اغلب هولاء ان نفقاتهم تستغرق دخلهم بل كثيرون منهم تبقى عليهم بقية دين من سنةٍ الى اخرى فلا تلبث هذه البقايا ان تتكاثر سنةً بعد سنةٍ وهم لا يشعرون وكثيرون منهم لا يتنبهون من غفلتهم الاَّ وقد اطاف بهم الافلاس واصبحوا في خطرٍ من ان يفقدوا املاكهم ووجاهتهم معاً

وليس التجار بيننا خيراً بكثيرٍ من ذكرنا من الاغنياء من اصحاب الاملاك. هؤلاء الذين يُنظر اليهم من بين جميع الطبقات ويتوقع منهم ان يحافظوا على رؤوس الاموال ويزيدوها من سنة الى اخرى ليُمِدُّوا بها البلاد ويزيدوا من مرافقها ومنافعها العامة — هؤلاء اذا فتشتم عن احوالهم ترون انهم يكادون يماثلون بقية الطبقات في تعريض رؤوس الاموال التي يتوقف عليها نجاح البلاد للخسارة والضياع. فان كثيرين من تجارنا ومَن هم بمثابتهم ممن جمعوا شيئاً من راس مالٍ قد استغوتهم البورصة فاقتحموها فضلات ما جمعوا فاطبقت عليها اشداقها وتركتهم صفر الايدي يعضون اصابعهم ندماً وحسرةً

قولوا لي ماذا اصاب بيروت في هذه السنين الاخيرة؟ اما نقص راس مالها نقصاً فاحشاً ضعضع اركان الامنية التجارية واوقف حركة الاعمال والمتاجر. لو شئت لظَلِلْتُ أُعدد حتى الصالح مظاهر واحوالاً لا تخفى على عاقل وكلها تشير الى سوء مصيرنا وتسرُّعنا افراداً واجمالاً البلاد والعباد الى شفا الافلاس والخراب. وقد بدأت الحال تكشف عما ذكرنا فاين الاطباء والصيادلة واصحاب الشهادات العلية الذين يخرجون من مدارسنا سنوياً؟ اين الصناع الاكفاء؟ اين النعلة الاقوياء؟ اين اهل الفلاحة والزراعة من يستغلون الاراضي ويقومون على استثمار خيراتها؟ اين جميع هؤلاء؟ وماذا اصاب اكثرهم؟ انهم يهاجرون افواجاً افواجاً لم يتوقف تيار مهاجرتهم منذ اكثر من خمس وعشرين سنة الى الآن حتى بلغ قِلَّتهم اطراف المعمور وما اظنُّ يقلُّ عدد هولاء المهاجرين عن الاربعمئة الف نسمة ولا يزال الكثير ممن لم يهاجر يتشوَّف الى المهاجرة ويجعلها نصب عينيه

تأمّلوا ايها السادة واحكموا لانفسكم . بلاد واسعة من اخصب بلاد الله في العمور ومن احسنها هواء وانقاها سماء وماء لا يزيد اهلها على المليونين ومع ذلك فقد هاجرها نحو من خمس سكانها وفي هولاء المهاجرين كثيرون من اطبائها وصيادلتها وكتبتها ومعلميها وصناعها من اقراهم بنيةً وأحدّهم قلباً وخاطراً . فلماذا هذه المهاجرة وما هو سببها ؟ انهُ ليس لذلك من سبب الاّ قلّة راس المال في البلاد عموماً واعوازهُ اولئك الذين هاجروا خصوصاً . نعم لو كان بين يدي الافراد او في البلاد راس مال ما هاجرها الطبيب ولا الصيدلي ولا الكاتب ولا المعلم . ومثل ذلك يقال في الصانع والعامل والفلاّح والزارع ومن سواهم من اهل الحرف المختلفة . وما معنى الافلاس الاّ ذهاب راس المال (ستأتي البقية)

جبر ضومط

تاريخ محمد علي باشا

حروب ابرهيم باشا

(تابع ما قبلهُ)

ختمنا الكلام في الجزء الاخير من السنة الماضية باخذ عكاء وقد فصّل المستر باركر[1] ذلك في كتابهِ فقال ان الدول المتحالفة بعثت ثلاث عشرة سفينة حربية واربع سفن بخارية بقيادة الكومودور نبير والاميرال ستبفرد فضربت بيروت واخذتها في السادس عشر من سبتمبر سنة ١٨٤٠ واخذت صيداء في السادس والعشرين منهُ ثم اخذت طرابلس واللاذقية وشرع الاميرال ستبفرد في ضرب عكاء في الثالث من توفمبر من سفينتهِ المسماة فونكس والكومودور نبير من سفينتهِ المسماة بوزّفرل وأرسلت الزوارق في الليل السابق لسبر غور البحر فوجدت انهُ يمكن ان تدنو السفن من الحصون فدنت منها اكثر مما قدّر قائد المدفعية في عكاء فانهُ كان قد حكّم المدافع حتى ترمي قنابلها الى ابعد من ذلك وكانت النتيجة ان قنابل عكاء كان تخرق حبال السفن وتقع وراءها واما قنابل السفن فدخلت الحصون والاستحكامات واضرمت فيها النار . وفي الساعة الرابعة اصابت مخازن البارود فاشتعلت ويقال انهُ قتل باشتعالها الفا نفس وفي الساعة السادسة بطل اطلاق المدافع من الجانبين وعند نصف الليل خرجت الجنود المصرية من عكاء فدخلتها جنود المتحالفين في الصباح ولم يقتل منهم سوى ثمانية عشر

---

(١) المستر باركر كان قنصلاً لانكلترا في مصر في عهد محمد علي باشا واقام في بلاد الشام زماناً طويلاً وابتنى له داراً في السويدية غرب انطاكية زارهُ فيها ابرهيم باشا لما كان في بلاد الشام